



من الكتب التي أحب أن أعود إليها بين الحين والآخر ، كتاب ظهر لأول مرة منذ أكثر من ربع قرن (عام ١٩٥٨) بعنوان « هذه فلسفتي ^(١) This is My Philosophy » يضم مجموعة من الفصول بأقلام عشرين من كبار الفلاسفة والادباء والمفكرين والعلماء الذين يمثلون اتجاهات ومواقف متباينة من الحياة ومن الإنسان والمجتمع . فنجد الفيلسوف البريطاني الشهير برتراند رسل إلى جانب عالم البيولوجيا جون هولدين J. B. S. Holdane إلى جانب الكاتب الروائي أولدس هكسلي Aldous Huxley والمؤرخ جورج ماكولي تريفيليان G. M. Trevelyan وعالم الفيزياء النووية روبرت اوبنهايمر J. R. Oppenheimer وعالم النفس التحليلي كارل جوستاف يونج Carl Gustav Jung والفيلسوف الوجودي الفرنسي جان بول سارتر وزميله ممثل الوجودية (المسيحية) جابريل مارسيل Gabriel Marcel ثم المفكر الفيلسوف السياسي الهندي راداكريشنان S. Radakrishnan وغيرهم . وتقدم هذه الفصول المختلفة التي كتب بعضها خصيصا لهذا الكتاب بينما تم اختيار البعض الآخر من كتاباتهم السابقة خلاصة آراء وأفكار أصحابها ، وهي آراء تُلقى في بعض الأحيان كثيرا من الضوء على حياة هؤلاء المفكرين وتوضح بعض جوانب شخصياتهم ، بحيث يبدو لنا - في بعض الفصول على الأقل - أن ثمة علاقة وثيقة بين الشخص وأرائه وبين الظروف التي مر بها والتجارب التي خاضها خلال رحلته الحياة ، وأن الإنسان هو إلى حد كبير خلاصة تجربته الذاتية وخبرته الشخصية . وإذا كان المؤرخ الألماني ترايتشكة قال عبارته الشهيرة التي يرددها الكثيرون من

عن السير والتر رايم: فاجنر وداروين

Whit Burnett; (ed.); This is My Philosophy; George Allen & Unwin, London 1958.

أن الإنسان يصنع التاريخ ، ويسترشدون بهذه العبارة في دراساتهم لحياة بعض الزعماء والساسة الذين تركوا بصماتهم وطابعهم على الحياة العامة في فترة معينة من التاريخ ، فإن المؤرخ الفرنسي المعاصر فرنان برودل Fer-nand Braudel يذهب على العكس من ذلك إلى أن التاريخ هو الذي يصنع الإنسان . فالإنسان هو مجموع العوامل البيئية والسياسية والثقافية ، ويوجه أخص العوامل الاقتصادية والاجتماعية ، التي وجد فيها وأحاطت به . والفرد لا يخرج على أية حال من فراغ ، وإن كان هذا لا ينكر دوره وتأثيره في بعض الأحيان في الثقافة والمجتمع .

وليس من شك في أن اتساع آفاق المعرفة وتنوعها وتشعبها وازدياد التخصص في الوقت ذاته هي أمور من شأنها أن تحد من قدرة طالب الثقافة على الإحاطة بشتى فروع المعرفة إحاطة دقيقة بحيث يتمثلها وتصبح جزءا من تكوينه العقلي والسلوكي على السواء . وكما يقول هويت بيرنت Whit Burnett في مقدمة الكتاب إنه « على أيام أفلاطون كان الأشخاص الموهوبون الملهمون يعيشون في الأغلب في مكان واحد هو أثينا . أما الآن فإننا قد نجدهم في باريس أو لندن أو برنستون أو روما أو نيويورك أو في قلب أفريقيا أو في دلهي ، والسبيل الوحيد لمقابلتهم هو عن طريق الكتب » P. XIII.

فالفلسفة على حد تعبير جابريل مارسيل « توجد حيثما وجد الإنسان المدرك لوجوده » ، وقد تكون الفلسفة بالمعنى الدقيق للكلمة مجرد وثن يعبده فريق من الناس ويتعلقون به ، « أما ما هو حقيقي فهو نوع من حياة الفكر المتأمل الذي يمكن - بل الذي ينبغي أيضا - متابعته على كل مستويات النشاط الإنساني » . وخلق بالقراءة الواعية لمثل هذا الكتاب بفصوله العديدة أن تزود القارئ بحصيلة وافرة من المعلومات وتكشف له عن بعض النواحي الشخصية المتعلقة بحياة هؤلاء المفكرين وخلفياتهم الثقافية والاجتماعية وتجاربهم وخبراتهم في الحياة . ومن الطريف هنا ما يذكره بيرنت من أن مجموع أعمار هؤلاء المفكرين والعلماء يصل الى ١٤٢٢ سنة . وهذا في حد ذاته يكفي لتبيين نوع الثروة الفكرية التي يمكن للمرء أن يخرج بها منه .

وكثير مما ورد في الكتاب يستحق التأمل والتفكير . من ذلك مثلا ما يذكره برتراند رسل عن تطوره الفكري خلال مراحل حياته وتحوله من الاشتغال في الأصل بالرياضيات الى الفلسفة فالسياسة ثم الاهتمام أخيرا بكتابة القصص . وقد كتب حول ذلك في عام ١٩٥١ عبارة يقتبسها بيرنت وهو يقدم الفصل الخاص برسل وفيها يقول : « إن ذكائي - كما هو الحال - كان يتضاءل ويتراجع باطراد منذ سن العشرين . فقد كنت أحب الرياضيات وأنا في مقتبل العمر ، فلما أصبحت الرياضيات صعبة بالنسبة لي تحولت الى الفلسفة ، وحين أصبحت الفلسفة هي أيضا عويصة انتقلت إلى السياسة ، ومنذ ذلك الحين أخذت أركز على القصص البوليسية » ، (صفحة ١) . وقد تخفى هذه العبارة شيئا من السخرية وراء تظاهره بالتواضع حول تقديره حدة ذكائه وقوة ذهنه وتفكيره ، ولكن المهم هنا حقا هو أن هذه العبارة تكشف لنا عن كيف كان هذا الرجل يتكيف مع تصوره للملكاته وقدراته في كل مرحلة من مراحل حياته وكيف كان يوجه هذه القدرات نحو الميادين التي يعتقد أنها أكثر ملاءمة لسنه وإمكانياته الذهنية والإبداعية باستطاع بذلك أن يملا حياته وحياة الآخرين وأن يستمر في أداء دوره المؤثر في الحياة بوجه عام .

كذلك الحال بالنسبة للكاتب الروائي أولدس هكسلي الذي يسجل لنا أن أهم حدث مفرد في حياته كان غير شك

ما أصاب عينيه من مرض ترتب عليه عزله وهو في بداية سن الشباب عن الضوء وإجباره على أن يعيش على موارده الداخلية الخاصة ، حسب تعبيره ، حتى تنهى إلى علمه أن طبيبا أمريكيا في كاليفورنيا يدعى بيتس قد اكتشف وسيلة يمكن عن طريق اتباعها بدقة وعناية أن يصلح ما أصاب العين من تلف ، ويقول في ذلك « كان ذلك الاكتشاف بالنسبة لي دليلا وبرهانا - في مجال واحد معين - على إمكان أن يصبح المرء سيد ظروفه بدلا من أن يكون عبدا لها ، فمشكلة الحرية بالمعنى السيكلوجي ، وليس المعنى السياسي للكلمة - هي إلى حد كبير مشكلة فنية technical . إذ ليس يكفي أن يتمنى المرء أن يصبح سيديا ، ولا أن يعمل بجهد لتحقيق هذه السيادة . إنما المعرفة الصحيحة بأفضل وسيلة لتحقيق هذه السيادة هي أيضا مسألة جوهرية . وفي هذه الحالة المحددة بالذات من العجز الإنساني استطاع الدكتور بيتس أن يقدم لنا هذه المعرفة . وثمة وسائل وأساليب أخرى ماثلة للسيطرة على الظروف المناوئة في مجالات أخرى أمكن تطوير كل منها على حدة وهي ميسورة لكل من يأبه بأن يتعلمها» (صفحة ٧٢) . ومثل هذه الدروس التي يخرج بها القارئ من هذه التجارب تجعل من قراءة الكتابات التي تدور حول حياة المفكرين وشخصيتهم وآرائهم نوعا من المتعة الذهنية المفيدة وتضفي مزيدا من الأهمية على هذا اللون من الكتابة الأدبية الراقية وخصوصا أنها تكشف عن العلاقة المتبادلة بين الإنسان وأفكاره وآرائه من ناحية والمجتمع الذي يعيش فيه والظروف التي يمر بها من الناحية الأخرى . ولقد عرفت كل اللغات والثقافات هذا اللون من الكتابة والتأليف في كل العصور . وتاريخ الفكر العربي والإسلامي فيه الكثير من هذه الكتابات وإن كان جانب كبير من هذا التراث عبارة عن ترجمات قصيرة وسريعة لحياة وأعمال الأدباء أو الصوفية أو غيرهم، وليست دراسات بالمعنى المتعارف عليه الآن حين نتكلم عن سيرة شخص ما أو ترجمة حياته biography أو عن السيرة الذاتية autobiography . وهناك بغير شك حالات وخصوصا في الأدب الحديث تتوفر فيها عناصر العمل الأدبي في فن التراجم ، ولعل أشهر هذه الأعمال كتاب الأيام لطله حسين .

ولكن الواضح أن العالم الغربي يشهد الآن إقبالا شديدا جدا على كتب التراجم والسير التي تصدرها المطابع هناك بأعداد متزايدة بحيث يكاد الأمر يتخذ شكل الظاهرة الثقافية ، وذلك على الرغم من كل ما يقوله بعض النقاد من أن هذا اللون من ألوان الكتابة لم يعد يحتل نفس المكانة الرفيعة التي كان يتمتع بها في القرن الثامن عشر وخصوصا في إنجلترا . ففي ذلك القرن كانت دراسة حياة مشاهير رجال الحكم والسياسة والفكر تحظى بكثير من الاحترام لدرجة أن صامويل جونسون Samuel Johnson كان يقول إنه لا يوجد شكل من أشكال الأدب أجدر بالرعاية والاهتمام من تراجم الحياة ، وأنه لا يماثل هذا اللون أي لون آخر من حيث القدرة على إدخال البهجة على النفس أو من حيث الفائدة التي يمكن اجتناؤها منه أو القدرة على الترفيه والإعداد لمختلف الظروف والأوضاع . والمعروف أن بوزويل كتب عن صامويل جونسون كتابا لا يزال يعتبر في نظر الكثيرين أفضل مثال لما يجب أن تكون عليه الترجمة لحياة المشاهير^(٢) . ولكن الظاهر أن هذا الوضع الفريد الذي كان يتمتع به فن كتابة حياة الأشخاص في إنجلترا لم يكن له ما

Boswell's Life of Samuel Johnson L.L.D. (1791)

(٢) المقصود بذلك كتاب :

The Lives of the English Poets

والمعروف أن جونسون نفسه كان له كتاب عن حياة الشعراء الانجليز وهو وقد وضع جونسون قواهد ومبادئ للتأليف في هذا الفرع الهام مثل ضرورة لمسك الكاتب بذكر الحقيقة مع التطرق إلى أدق التفاصيل عن الحياة اليومية التي كان يجيها المترجم له لأن مثل هذه التفاصيل هي التي تساعد على إضفاء الحياة من جديد على تلك الشخصية . راجع في ذلك مادة :

“Biographical Literature” in, Encyclopaedia Britannica; vol. 1., p. 1012.

يمائله في فرنسا في ذلك الحين، على ما يقول دوغلاس كولينز . ومع ذلك فإنه يذكر أنه في أثناء الثورة الفرنسية كان هناك إقبال واضح على قراءة التراجم الكلاسيكية ، وأن نابليون مثلا كان مغرما بكتاب بلوتارك، وأن شارلوت كورداي Charlotte Corday التي قتلت مارا Marat هيأت نفسها لذلك الموقف بأن عكفت في الليلة السابقة لمقتله على قراءة حياة بعض الشخصيات التي كانت تؤمن بالأخلاق الرواقية (٣) .

ولكن إذا كانت معظم تراجم الحياة في القرن الثامن عشر تهتم بحياة كبار رجال الدولة أو رجال الكنيسة وتعمل على تمجيد وتخليد ذكراهم وإنجازاتهم وإبراز ملامح شخصياتهم فإن ذلك لم يلبث أن تغير وامتدت التراجم إلى حياة أشخاص يحتلون مراتب أدنى من هذا بكثير ؛ بل إن بعض هذه الكتابات تناولت أشخاصا من كل الطبقات بما في ذلك الطبقة الدنيا ، فأصبح الناس بذلك يقرأون ليس فقط عن عظماء رجال عصرهم ولكن أيضا عن حياة البؤساء والمعذبين في الأرض بل عن القراصنة والمحتالين وبعض الشواذ وما إلى ذلك ، بحيث نجد أنه في أواخر ذلك القرن كان هناك من ينمى على هذا الفن الرفيع انحداره وهبوطه وإسفافه ؛ وبدلا من أن يكون أداة للتعليم والتهديب أصبحت كتب السير أو تراجم الحياة مجرد أداة للتسلية وإشباع الفضول . (٤)

ومع ذلك فقد شاهد القرن التاسع عشر في أوروبا اهتمام عدد كبير من كبار المفكرين والأدباء بفن التراجم والسير ، فنجد في فرنسا مثلا رجالا من أمثال تين Taine وريسان Renan والناقد الأدبي الشهير سانت بيف Sainte-Beuve كما نجد في ألمانيا بعض الفلاسفة الاجتماعيين والمؤرخين أمثال فيلهلم ديلتاي Wilhelm Dilthey الذي كانت له في الموضوع أفكار وآراء صائبة نابعة من نظرتة إلى العلوم الاجتماعية وعلاقة الفرد بالمجتمع ، وهي نظرة خليقة بالاهتمام . فقد كان ديلتاي يعتبر الإنسان الفرد ، وليس العقل الجمعي كما كان يذهب بعض الاجتماعيين الفرليسيين - هو الوحدة الأساسية للحقيقة التاريخية ؛ وعلى ذلك فإن ترجمة حياة الشخص الفرد ، سواء أكانت هي ترجمة حياة الشخص نفسه (السيرة الذاتية) أم ترجمة حياة شخص آخر هو الشكل الأساسي الذي يؤلف « الجلد » الذي تتشعب منه وتتفرع كل الدراسات الإنسانية على اختلافها . ومن هذا المنطلق كتب ديلتاي بعض الصور الوصفية القصيرة التي تتناول فيها حياة عدد من السياسيين والفلاسفة والمفكرين والفنانين من أمثال هيجل وفرديريك الثاني وجوته وبرونو وديكنز وغيرهم ، بل إنه اقترح منهجا للكتابة في هذا الفرع الرفيع أوصى فيه بضرورة إحاطة الكاتب بعلوم الاقتصاد والتاريخ وعلم الاجتماع وعلم النفس إلى جانب النقد الأدبي ، وكان يصدر في ذلك عن ثقافته الواسعة المتنوعة التي جعلت منه أحد عمالقة الفكر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر (١٨٣٣ - ١٩١١) ، وكان يصدق عليه ما قاله هو نفسه عن جوته من أن « كل شيء بالنسبة له كان يعتبر مشكلة » ، كما أن كل حل كان يتضمن مشكلة جديدة ، فلم يكن هناك ما يرضيه على الإطلاق . وكانت كتابات ديلتاي تغطي بذلك مجالات واسعة من الاستمولوجيا والأخلاق وعلم الجمال وعلم النفس والأدب وتاريخ الأفكار ، وكان في هذا كله يتهم بتوضيح العلاقة بين « العلم الطبيعي » ومجالات « العلوم الإنسانية التي تعنى بدراسة السلوك والإبداع الإنساني ، ويرى أنه ينبغي لهذه العلوم ألا تقتصر على دراسة الأشكال الظاهرية التي يمكن ملاحظتها وتتبعها بسهولة بل يجب عليها أن تفرص

Douglas Collins; Sartre As Biographer; Harvard U.P., Cambridge, Mass. 1980, p. 1

(٣)

Ibid, p. 2

(٤)

وراء هذه الظواهر بحثا عن الفكر والرغبة والعاطفة وأن تكشف عن الروابط القائمة بين التجربة المعاشة والأسلوب الذي يعبر به المرء عن هذه التجربة والذي يمكن فهم التجربة ذاتها عن طريقه . فكان المهم في العلوم الإنسانية هو الوصول إلى الفهم الداخلي الذي لا يخلو من التعاطف مع موضوع البحث . وقد حاول ديلتاي أن يطبق هذه النظرة على التاريخ باعتباره هو أساس الحقيقة الإنسانية كلها . فقد كان يؤمن بحسب تعبير خوزيه أورتيجا إي جاسيه José Ortega Y Gasset بأنه « ليس للإنسان طبيعة وإنما له تاريخ » فحسب ، وهذا الموقف هو الذي جعله ينظر بكل هذا الاحترام والتبجيل والاهتمام لدراسة (تاريخ) حياة الأشخاص بما في ذلك السيرة الذاتية^(٥) . ولكن هذا كله لا يعني في نظر بعض النقاد المحدثين والمعاصرين أن فن كتابة تراجم الحياة وصل في القرن التاسع عشر إلى نفس المكانة من الاحترام والتقدير التي كان يحظى بها في القرن الثامن عشر ، مع اعترافهم في الوقت ذاته بأهمية بعض الكتب التي صدرت في هذا الفرع من الكتابة ، ومع اعترافهم أيضا بظهور عدد كبير من كتب التراجم في انجلترا ذاتها وأن الكثير من هذه الكتب كان يحاول اتباع نفس الطريق أو المنهج الذي وضعه بورزيل في دراسة حياة صامويل جونسون .

ولقد ازدادت الدراسات التي تتناول حياة الأشخاص وسيرتهم زيادة هائلة منذ مطلع هذا القرن وبوجه خاص بعد الحرب العالمية الثانية كما تنوعت مداخل الدراسة وأساليب جمع المعلومات الخاصة بوقائع حياة هؤلاء الأشخاص وتحليل هذه المعلومات وتفسير الأحداث في ضوء النظريات السيكولوجية والاجتماعية الحديثة . ولكن صاحب هذه الزيادة ظهور تساؤلات عديدة حول أهمية وجدوى ومبررات وأخلاقيات هذا الفرع من الكتابة ؛ بل ذهب الأمر بالعديد إلى حد التساؤل عما إذا كان من الممكن حقا تقديم ترجمة دقيقة وصحيحة وأمينة لحياة شخص ما غريب أو حتى لحياة الكاتب نفسه (السيرة الذاتية) وربما كان السبب وراء إثارة هذه التساؤلات هو ظهور عدد من التراجم التي تسيء إلى الأشخاص المترجم لهم على الرغم من كل ما يزعمه المؤلف من أنه يكتب بقصد إبراز إنجازات صاحب الترجمة ومقوماته الشخصية من وجهة نظر موضوعية بحتة . فكثير من تراجم الحياة يبدو فيها الهجوم والعدوانية غير المبررة . وسوف نعود إلى هذه النقطة مرة أخرى ، ولكن يكفي أن نشير هنا إلى أن فرويد كان قد لاحظ ذلك وذهب إلى أن الكثيرين من كتّاب التراجم يعكسون فيها يكتبونه بصورتهم هم أنفسهم ومواقفهم نحو آبائهم في أثناء طفولتهم . وقد وصل التشكيك في جدوى الكتابات (البيوجرافية) والتهوين من أمرها وأمر المشتغلين بها إلى حد الزعم بأن الكاتب أو المؤلف الذي يشغل نفسه بهذا النوع من البحث والتأليف هو في الحقيقة شخص (نسبي) ويكاد يكون هامشيا ، وذلك لأن أفكار وآراء وأقوال صاحب الترجمة (أي المترجم له) تختلط وتتداخل مع أفكار المؤلف وتزاحمها حتى تكاد تخنقها . فالكتابة عن حياة شخص آخر فيها إذن ضياع وإهدار لذاتية المؤلف الذي ينفق كثيرا من وقته وجهده وفكره في السعي لمعرفة حقيقة ذلك الشخص الآخر حتى يفقد (حقيقة) نفسه هو .^(٦)

ولقد دخلت ميدان كتابة تراجم الحياة فئات متنوعة من (الكتّاب) الذين لم تكن الكتابة مهنة لهم في الأصل أو

Michael Biddiss; "Wilhelm Dilthey : German Philosopher and Historian" in Justin Wintle, (٥) (ed); Makers of Nineteenth Century Culture, R.K.P., London 1982, PP. 167/8;

Douglas Collins, op. cit., p. 24.

Ibid, p. 3

وراجع أيضا : -

(٦)

الذين لم يمارسوا حرفة الأدب من قبل . وقد أساء بعضهم بغير شك إلى مستوى الكتابة وخرجوا بها عن هدفها الأصلي . واتخذ بعضهم منها وسيلة للتشهير بالأشخاص الذين يكتبون عنهم أو كانوا يتمتعون في المحل الأول بإبراز بعض الجوانب الخفية أو المثيرة في حياتهم دون أي محاولة منهم للتحليل أو الفهم أو الشرح والتفسير . ولكن لا شك أن هناك في الوقت ذاته عددا من كبار رجال الفكر والأدب يؤمنون بأهمية هذا اللون من الكتابة ويرفضون تماما فكرة اعتبار مؤلف التراجم إنسانا (نسبيا) أو هامشيا . بل إن بعض هؤلاء الكتاب الكبار وقفوا معظم حياتهم وإنتاجهم على الإبداع في هذا الميدان ، كما هو الحال بالنسبة للكاتب الفرنسي الشهير أندريه موروا André Maurois (١٨٨٥ - ١٩٦٧) الذي يقول عنه جان مالبينيون أنه وجد طريقه الحقيقي في لون غير مطروق بكثرة في فرنسا وهو ترجمة الحياة ، حيث استطاع أن يكشف فيه وبطريقة فذة عن تفكيره الواضح وعقليته المتعمقة ، وترك لنا في هذا الميدان عددا من أهم التراجم لحياة عدد من الكتاب والأدباء من أمثال شيلي (١٩٢٣) وفولتير (١٩٣٥) وبروست (١٩٤٩) وغيرهم ، بل إنه كتب عام ١٩٦٥ وهو في الثمانين من عمره كتابا طريفا عن حياة بلزاك بعنوان : *Prométhée ou La Vie de Balzac* (٧) بل إن مفكرا وكاتبنا فيلسوفا مثل بجان بول سارتر يقف صراحة موقف المعارضة من مثل هذه الاتجاهات التي تحاول التهوين من شأن فن ترجمة الحياة ويرى أن مسألة كتابة ترجمة (حقيقية) مسألة ممكنة وأن الكاتب الذي يُقبل على هذا اللون من الكتابة (بطل) يحاول اظهار إمكانية الحياة الإنسانية حتى لو أخفق في ذلك ، وأن العمل الذي يريد تحقيقه وإنجازته هو التبدليل هل أن صاحب الترجمة هو «الشخص الكلي المتفرد» وأنه شخص قادر على استيعاب كل شيء كما يمكن استيعابه هو نفسه والإحاطة به ، وأنه في الوقت ذاته شخص تاريخي وموضوع للتاريخ . وتحقيق مثل هذا العمل ليس بالشيء الهين ، فهو عمل مثالي ويستحق بدون أدنى شك أن يكرس الكاتب له نفسه وحياته ، ولذا فإن الأشخاص الذين يتشككون - ويشككون - في قيمة ترجمة الحياة ويحاولون التقليل من شأنها هم إنما يعملون في الحقيقة على إهدار الإنسانية والاستهانة بإمكاناتها . (٨) ولقد كتب سارتر ثلاث تراجم لحياة ثلاثة من كبار أدباء فرنسا وهم : بودلير Baudelaire وجان جينييه Jean Genet وأخيرا كتابه الضخم الذي يقع في ثلاثة أجزاء عن فلوير الذي أسماه «عبيط العائلة L'Idiot de la Famille» ، وذلك كوسيلة منهجية مطردة للوصول إلى معرفة كاملة عن أشخاص معينين بالذات . والظاهر أن ذلك كان أملا قديما عند سارتر وأنه كان يصبو إلى تحقيقه منذ البداية على ما تقول صدقته سيمون دوبوفوار . وكان صدور كتاب فلوير بالذات هو الذي بين مدى الأهمية التي يعطيها سارتر لهذا الفرع من الكتابة ومدى اهتمامه بها وأنه كان يرى فيه عملا إبداعيا إلى حد كبير وليس مجرد عمل هامشي ؛ وأن الترجمة لحياة كبار المفكرين والأدباء القادرين على استيعاب الحياة ككل والذين يمكن استيعابهم في الوقت ذاته كان بالنسبة لسارتر أكثر صور النقد الأهمي جدية ، وخصوصا أن النقد كان يتضمن في نظره ، وحسب عبارة نيتشه «الاستدلال عن طريق الرجوع من العمل إلى صاحب العمل ، ومن الفعل إلى الفاعل ، ومن المثال إلى الأشخاص الذين يهفون إليه ، ومن كل أشكال التفكير والتقييم إلى الحاجة الملحة المسيطرة وراء هذه الأشكال» (نفس المرجع صفحات ٥ و ٦) .

وأيا ما يكون الأمر فليست كتابة تاريخ حياة شخص ما هي مجرد سرد للمعلومات والأحداث في تتابع زمني دقيق دون أن تكون هناك أية تساؤلات محددة توجه الدراسة من ناحية وتحتاج إلى الإجابة عنها من الناحية الأخرى . وهذا

Jean Malignon; Dictionnaire des écrivains français; Seuil, Paris 1971, p. 300

(٧)

Douglas Collins, op. cit., p. 4

(٨)

فارق أساسي يجب أن يؤخذ في الاعتبار للحكم على مستوى وعمق هذا النوع من الدراسات قوما كان هذا واضحا بشكل عام في التراجم الثلاث التي ألفها سارتر ، إذ كان هناك تساؤل واضح محدد يجول في ذهنه طوال الوقت وهو : « ماذا يمكن للمرء أن يعرفه عن شخص معين الآن ؟ » . وقد ظهر هذا السؤال بوضوح وصراحة في بداية « عبيط العائلة » . والظاهر أن هذا التساؤل كان نابعا من الميل الأساسي الذي يكمن وراء تفكير سارتر نحو الاهتمام بالناس والإحساس بوجودهم . فالفيلسوف الفرنسي موريس ميرلويونتي Maurice Merleau-Ponty يذكر لنا أنه كان يقف ذات يوم أمام محطة لكسمبورج المزدهمة فاذا بسارتر يقول له : « انني لا أستطيع أن أمتلك نفسي ، إن كل هؤلاء الناس يشيرون اهتمامي البالغ » . كذلك تذكر سيمون دو بوفوار أنها لاحظت منذ أوائل عهدها بسارتر اهتمامه الشديد الذي يكاد يصل إلى حد الهوس بمراقبة الناس ، وأنه كان يمضي هو وأصدقاؤه ساعات طويلة يتناقشون ويتجادلون حول تحليل إشارة يد أو حركة جسم أو نبرة صوت صدرت عن شخص ما . ذلك أن الهدف الذي كان يبحث عنه دائما هو الوصول إلى فهم شامل كلي وقيمي لذلك الانسان الفرد لأنه كان يعتقد أن « الفرد هو الموجود حقا » (كولينز صفحة ٤) .



والذي نريد أن نخلص إليه من هذا كله هو ضرورة قيام نوع من التفاعل القوي بين الكاتب والشخص الذي يترجم له بحيث يتعاطف معه ومع أفكاره وشخصيته وإنجازاته وظروف حياته مما يساعده على أن يتغلغل إلى أعماق هذه الشخصية ويتجاوب معها ويدون مقوماتها والعناصر المختلفة التي تدخل في تكوينها والمؤثرات التي خضعت لها . فالكاتب حين يقدم على الكتابة عن حياة شخص ما فإنه يفعل ذلك لأنه يكون على وعي مسبق بأن هناك بعض جوانب في تلك الحياة تستحق منه أن يتحمل عناء البحث عنها وإبرازها أو ترجمتها في صورة أدبية جمالية وتوصيلها للآخرين . فلن يمكن فهم الفرد فهما حقيقيا وكاملا إذا اكتفى الباحث بدراسته من خارج، إن صح هذا التعبير ، أي إذا اقتنع بتسجيل مظاهر سلوكه الخارجي وعلاقاته الشخصية والاجتماعية دون أن يحاول تفسيرها (داخليا) عن طريق التغلغل إلى أعماق ذلك الشخص ومحاولة فهمه فهما شاملا عميقا ومعرفة الدوافع والنوازع والمشاعر التي تتحكم في ذلك السلوك وتلك العلاقات ، وقد يقتضي ذلك من الكاتب أن يضع نفسه موضع الشخص الذي يترجم له حتى يستطيع أن يحقق ذلك الفهم والتجاوب .

وقد يمكننا أن نفهم ذلك بطريقة أفضل إذا نحن رجعنا إلى حالة محددة بالذات كي نتعرف المقصود بذلك التعاطف والتجاوب والتفاعل، والمثال الذي أشير إليه هنا هو موقف كل من لورانس طومسون Lawrance R. Thompson وويليام برينشارد William H. Pritchard من ترجمة حياة الشاعر الأمريكي روبرت فروست Robert Frost (١٨٧٤ - ١٩٦٣) الذي يقول فيه « كتاب أكسفورد عن الشعر الأمريكي The Oxford Book of American Verse (في المقدمة) : « حين يأتي الوقت لكتابة تاريخ الشعر الأمريكي في الوقت الحاضر فمن المحتمل أن يكون أهم شخصيتين فيه هما فروست وإليوت » . ويعتبر الأستاذ طومسون هو الكاتب (الرسمي) لسيرة فروست، على اعتبار أن فروست كان قد طلب منه الترجمة لحياته عام ١٩٣٩ ووضع تحت يديه الإمكانات التي يمكن تصورها مما أتاح له فرصة الوصول إلى كثير جدا من مصادر المعلومات بما في ذلك بعض الأشرطة

المسجل عليها مقابلات وأحاديث وحوارات محفوظة في جامعة فرجينيا ، وأعطاه الحق في أن يقتبس منها ما يشاء ، وبذلك تمكن طومسون من أن يجمع بالفعل قدرا كبيرا جدا من المعلومات التي لم يستطع أي شخص آخر أن يجمع مثلها ، بما في ذلك فروست نفسه على ما يقول ريتشارد بوارييه^(٩) . ولكن كما يحدث عادة بالنسبة للعلماء والأساتذة الأكاديميين الذين يعالجون المسائل الأدبية من منطلق أكاديمي بحث والذين يحرصون على أن يعرفوا « كل شيء » عن الكاتب أو الأديب الذي يتكلمون عنه فإن طومسون لم يعرف (كيف يقرأ) الشاعر أو (كيف يسمع) شعره وخطاباته وأحاديثه. وتظهر أهمية ذلك حين تذكر أن فروست كان يقول دائما - وقد سجل ذلك في أحد خطاباته « ان جرس الجملة كثيرا ما يقول أكثر مما تقوله الكلمات » فإنه يستطيع أن « يوحى بمعنى مخالف تماما لما تنقله الكلمات » ، ويذكر بوارييه أنه حدث منذ سنوات في أثناء حفل كان يحضره فروست وطومسون أن التفتت المضيفة إلى الشاعر بعد حديث طويل مع طومسون وقالت له : « ان مستر طومسون رجل فائن جذاب » فأجاب فروست : « نعم ، ولكن هل هذا يكفي ؟ » . وفي ذلك ما قد يشير الى أن كتابة السيرة أو ترجمة الحياة تحتاج الى متطلبات أخرى غير مجرد أن يكون الكاتب أستاذا أكاديميا عالما أو شخصا جذابا اذا كان يفترق إلى ذلك الفهم الشامل العميق القائم على التفاعل والتجاوب والتعاطف مع مقومات شخصية المترجم له ، لأنه بدون هذا الفهم تصبح (الترجمة) عقيمة وخالية من الحياة أو مليئة بالأحكام التقييمية الناجمة عن عدم إدراك جوانب القدرة والضعف والتعاطف معها أكثر مما تحتاج إلى الحكم عليها بالصواب أو الخطأ . وموقف طومسون يختلف في ذلك تماما عن موقف بريتشارد من الشاعر . إذ على الرغم من أنه لم تكن لديه كل تلك المعلومات التي كانت متاحة لطومسون إلا أنه أفلح في أن يتناول تلك المعلومات القليلة نسبيا بطريقة تجمع بين الحب والإعزاز والقوة دون أن يحاول أيجاد أي تبريرات أو معاذير لتصرفات الشاعر وسلوكه (نفس المرجع والصفحة) .

وربما كان هذا أيضا هو موقف چان بول سارتر من الأدباء الثلاثة الذين ترجم لهم ، وهو موقف عبر عنه بوضوح في عبارته الشهيرة : « أن تفهم آدم هي أن تصبح أنت آدم » . وربما كان هذا أيضا هو ما قصدت اليه كوزيما فاجنر ، عشيقته الموسيقار ريتشارد فاجنر التي أصبحت زوجته بعد أن أنجبت منه - وهي لا تزال متزوجة من هانز بيلوف - ثلاثة أطفال . وحين قرر زوجها في آخر الأمر أن يطلقها وقال لها : « إنني أصفح » ردت عليه قائلة « ليس الصفح هو المهم ، وإنما المهم هو الفهم » .

هذا من شأنه أن يفرض تمييزات واضحة بين تراجم الحياة من حيث هي عمل أدبي لا يخلو من عنصر الإبداع وبين الدراسة التاريخية العلمية لحياة أو سيرة أحد الرجال أو لأي موضوع آخر من الموضوعات . فالمؤرخ والأديب اللذان يكتبان عن شخص واحد معين بالذات قد يعتمدان على نفس المادة ونفس المعلومات ويرجعان إلى نفس المصادر ؛ ولكن أسلوب المعالجة يختلف في الحالتين نظرا لتدخل العوامل الذاتية بشكل واضح في المعالجات الأدبية والفنية . والذي يهيم هنا ليس هو كثرة المعلومات بقدر ما هو تعدد المصادر وتنوعها لأن ذلك يتيح الفرصة للكاتب الأديب أو المؤرخ لمقارنة المعلومات بعضها ببعض والتحقق من صدقها ، فضلا عن أنه يلقى كثيرا من الأضواء ومن زوايا مختلفة على حياة ذلك الشخص وآرائه والعوامل التي أثرت فيها وساعدت على تشكيلها . وهذا لم يمنع البعض من أن يروا في ترجمة الحياة نوعا من التاريخ نظرا لأن الأديب حين يدرس حياة شخص ما فإنه يتبع نفس الخطوات (المنهجية) التي يلجأ اليها المؤرخ

Ritchard Poirier, "Green Giant", in New York Review of Books, 25 April 1985, p.26.

(٩)

سواء في جمع المعلومات أو التحقق منها وهي أمور أقرب في طبيعتها إلى (الحرفة) منها إلى (الفن) أو العمل الإبداعي، ويمكن اجادتها عن طريق الدراسة والمران ولا تتطلب أية قدرات أو ملكات إبداعية معينة بالذات ولكنها تقتضي ضرورة الالتزام بالمحكات العلمية الدقيقة . وكثيرا ما يصادف الكاتب الأديب وهو يجمع المعلومات الخاصة بحياة الشخص الذي يترجم له صعوبات تحتاج إلى التذليل ، كما هو الحال حين لا يطمئن إلى صحة المذكرات التي يتركها صاحب الترجمة مثلا أو الخطابات والمراسلات واليوميات وغيرها من الأوراق التي قد يعثر عليها الدارس ضمن مخطافته . فقد يعتمد الشخص تسجيل مذكراته بطريقة معينة بالذات لكي يخفي حقائق ووقائع معينة لا يجب لها أن تعرف وتنتشر بين الناس أو قد يسجل هذه الوقائع من زاوية معينة لكي يبرر بها الأحداث أو لكي يخلق انطبعا معيناً بالذات أيضا ، وهذا معناه أن (الوثائق) المكتوبة التي يرجع إليها الكاتب ويعتمد عليها في الكتابة عن حياة ذلك الشخص كثيرا ما تكون هي ذاتها عرضة للتزييف المتعمد - أو غير المتعمد - من جانب صاحبها أو أحد المتصلين به . وتمحيص هذه الوثائق والكتابات لاستخلاص الحقائق المؤكدة الموثوق بها يتطلب جهودا كثيرة وطويلة ومضنية . وهذا جانب هام يشترك فيه الأدب والتاريخ في معالجتها لحياة الأشخاص أو السير . والعمل الأدبي لا يتعارض هنا مع المحكات العلمية بهذا المعنى وفي هذا النطاق . والأديب يقوم في بحثه عن الحقيقة وتتبع خيوطها بدور يشبه دور (المخبر السري) في محاولته جمع شتات وتفصيل وأجزاء (القضية) وتتبع خيوطها وفحص (المستندات) التي قد تبلغ في بعض الأحيان من الكثرة حدا يفوق تصور الكثيرين . فحين أراد فرانك فريدل Frank Friedel مثلا أن يكتب عن حياة فرانكلين روزفلت رئيس الولايات المتحدة الأمريكية الأسبق وجد أمامه أكواما هائلة من الأوراق والوثائق والمستندات والمذكرات تزن حوالي أربعين طنا ، وكان يتعين عليه أن ينظر فيها كلها ويفحصها بدقة . وكان لا بد له من أن يلجأ في ذلك إلى مختلف طرائق البحث والتحقق التي يستعين بها علماء التاريخ وأيضا علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا وغيرهم حين يعرضون للدراسة الوثائق .

وبالمثل فإن الكتابة عن حياة عالم مثل تشارلز داروين Charles Darwin تتطلب من الباحث - بصرف النظر عن تخصصه - أن ينظر في كل المذكرات والخطابات والمراسلات والوثائق التي تركها هو نفسه أو المتصلون به . ولقد وصلت الخطابات التي تبادلها داروين مع عائلته وأصدقائه حوالي أربعة عشر ألف خطاب غير تلك التي ضاعت أو أُحرقت . فنحن نعرف مثلا أن خطابه إلى (إمّا أوين Emma Owen) التي يقول بيتر برنت عنها إنها حبه الأول وربما حبه الحقيقي الوحيد غير موجودة ، والظاهر أنها هي نفسها كانت تحرقها أو تمزقها بمجرد قراءتها أو أنها أبادتها في فترة لاحقة خشية أن تقع في أيدي غيرها ، ولكن داروين احتفظ لمدة نصف قرن من الزمن برسائلها إليه ، ومنها نستطيع أن نعرف ونتخيل نوع العلاقة التي قامت بينها كما أنه يمكن من قراءة خطاباتنا أن نتصور ما كان داروين يكتبه إليها فتردهي عليه ، وكيف أن هذه العلاقة بدأت تضعف ، وأسباب ما طرأ عليها من ضعف ؛ بل نستطيع أن نحكم منها على عقليتها ونوع ومستوى تفكيرها وأن ذلك قد يكون من أكبر الأسباب التي أدت إلى انتهاء هذه العلاقة وأن ظل حب داروين لها قائما على ما نجد من بعض رسائله إلى ابن عمه ، إذ كان يذكرها بكثير من اللهفة واللوعة ، كما أن بعض العبارات التي كانت ترد على لسان بعض معارفها والتي سجلتها بعض المذكرات تكشف هي أيضا عن عمق مشاعره نحوها وأن المسألة لم تكن مجرد نزوة عابرة . وليس من شك في أن احتفاظ داروين بخطابات (إمّا أوين) كل هذه

السنوات الطويلة رغم أنها كانت تطالبه دائماً بإحراقها لدليل واضح على عمق هذه المشاعر^(١٠). ولكن الغريب في الأمر مع ذلك أن داروين لم يذكرها إطلاقاً في «سيرته الذاتية»^(١١). ولقد بدأ بعض العلماء المهتمين بالدراسات الداروينية في نشر هذه الرسائل التي يبدو أنه لن يتم نشرها كلها قبل بداية القرن الحادي والعشرين. فقد ظهر المجلد الأول وهو يحتوي على ٣٣٨ رسالة فقط (بالإضافة إلى التعليقات والفهارس المختلفة) وهي تغطي الفترة من عهد التلمذة في المدرسة (الثانية) وهو في الثانية عشرة من عمره حتى العودة من رحلته على ظهر السفينة (The Beagle) وهو في سن السابعة والعشرين، أي أن هذه الرسائل لا تشغل من عمره سوى خمس عشرة سنة فقط^(١٢). ويمكن للقارئ أن يخرج منها بكثير جداً من المعلومات التي تشير إلى ملامح الحياة الفكرية والثقافية والاجتماعية وتقاليد السلوك في الطبقة التي ينتمي إليها، كما أنها تكشف عن بداية تطوره الذهني؛ إذ يظهر منها بشكل واضح وجلي أن داروين كان لا يزال في تلك الفترة يؤمن في «ثبات الأنواع»، وهذا معناه أنه لم يبدأ يفكر في فلسفة «تحول» الأنواع إلا في أثناء عودته من الرحلة حين أخذ يراجع المادة التي جمعها من جزر جلاباجوس Galapagos ويعيد النظر في أمر ترتيبها، وكان ذلك في أواخر الصيف وخلال الخريف من عام ١٨٣٦^(١٣).

ومع ذلك فإن هناك بعض اختلافات هامة بين تراجم الحياة باعتبارها أحد أشكال الكتابة الأدبية وبين الدراسات التاريخية العلمية لحياة أحد الأشخاص. فالجانب الذاتي أوضح بغير شك في الكتابة الأدبية، وأن كان هناك من يتشكك في إمكان تحقيق الموضوعية في العلوم الانسانية والاجتماعية ويرتاب في جدوى هذه الموضوعية إذا كان لها وجود على الإطلاق. يضاف إلى ذلك أن التاريخ - كعلم - يبحث عن القضايا العامة المرتبطة بفترة زمنية معينة أو بشعب معين في فترة من الفترات أو عصر من العصور. بل إن هذا يصدق على الحالات التي يهتم فيها التاريخ بدراسة نظام اجتماعي معين أو بحياة شخص معين، وإن كان لا يغفل في الوقت ذاته الأحداث الجزئية، وذلك بعكس «ترجمة الحياة» التي تركز أولاً وقبل كل شيء على حياة «إنسان فرد» وتهتم طوال الوقت بتتبع ومعرفة دقائق وتفصيل حياته، حتى وإن كانت تنظر إلى هذه التفاصيل في ضوء الظروف والأوضاع العامة وتفسرها بالإشارة إليها^(١٤).

وليس من شك في أن مقولة «لن يوجد تاريخ إن لم تكن هناك وثائق Pas des documents pas d'histoire» التي صدرت عن لانجلوا Langlois وسنيوبو Seignobos في أوائل القرن والتي تعني أنه ليس ثمة

Peter Brent, Charles Darwin : A Man of Enlarged Curiosity, Heinmann, London 1981, pp. (١٠) 57-79.

Charles Darwin's Autobiography; Collier Books, N. Y. 1950 (١١)

The Correspondence of Charles Darwin, Vol. 1; 1821-1836, Cambridge University Press, Cambridge 1985 (١٢)

ويشرف على نشر الرسائل اثنان من العلماء هما فرديريك بوركهارت Frederick Burkhardt وسيدني سميث Sydney Smith ويعاونهما لجنة من اثني عشر عالماً من بريطانيا وأمريكا (سنة من كل دولة) وذلك تحت رعاية المجلس الأمريكي للجمعيات العلمية American Council of Learned societies وبالتعاون مع مكتبة جامعة كيمبردج والجمعية الفلسفية الأمريكية. ويقع المجلد الأول في ٧٢٠ صفحة منها أكثر من مائة وخمسين صفحة من التذييلات والمراجع والفهارس والتعليقات، مما يشير إلى ضخامة العمل ومقدار الجهد المبذول في إخراجه.

Stefan Collini, "From Salop to the Galapagos"; T.L.S.; 10 May 1985 p. 511 (١٣)

"Biographical Literature" in Encyc. Brit., op. cit (١٤)

بديل عن الوثائق - أيا ما تكون طبيعة هذه الوثائق - تصدق على التاريخ وعلى تراجم الحياة والسير ، سواء أكانت هذه التراجم لأشخاص ماتوا منذ زمن بعيد أو قريب أم لأشخاص لا يزالون على قيد الحياة . فهنا يؤخذ التاريخ كمنهج ، وليس كعلم أو تخصص ، وهنا أيضا تبرز بعض الفوارق الأخرى الهامة بين تراجم الحياة كما يفهمها ويعالجها المشتغلون بالأدب وبين الدراسة التاريخية بالمعنى الدقيق للكلمة .

فمن ناحية ليس ثمة ما يدعو الكاتب الأديب حين يعرض سيرة شخص ما إلى أن يلتزم بالسلسلة الزمني للأحداث والوقائع كما يفعل المؤرخ في الأغلب ، إنما يخضع المادة والمعلومات للانتقاء والاختيار . فليست المسألة كما سبق أن ذكرنا مجرد تجميع للمعلومات وترتيبها وعرضها حسب وقوعها ، بل إن نخلة الكاتب وتصوره العام لحياة الفرد تلعب دورا كبيرا في عرض الأحداث والطريقة التي يتم بها ذلك العرض ، فالمعلومات التي يجمعها الكاتب الأديب تزوده بالإطار العام لحياة صاحب الترجمة ، ويستطيع هو أن يتحرك كيفما شاء داخل الإطار بحيث يعرض المادة بما يتفق وتصوره لتلك الحياة وتلك الشخصية التي يكتب عنها ؛ كما أنه يستخلص منها ما يتلاءم مع ذلك التصور ويؤيده أو ما يكشف عن بعض الأبعاد الأخرى الجديدة التي لم تكن معروفة من قبل . وقد يضطر لتحقيق ذلك إلى أن يعطي كثيرا من الاهتمام والعناية لبعض الأحداث التي قد يمر بها المؤرخ بسرعة لأنها لا تخدم أغراضه من البحث ، مثل بعض أحداث الطفولة بذلك لكي يزيل عن تلك الفترة بعض ما يحيط بها من غموض أو لكي يستخلص منها بعض المؤشرات المبكرة لأمر لم يتحقق في الواقع إلا في مرحلة تالية ، بينما هو في الوقت ذاته قد يكتفي بالإشارة السريعة إلى فترات أخرى طويلة من حياة صاحب الترجمة أو حتى يسقطها كلية من اعتباره لأنها لا تساعد على فهم الشخصية التي يدرسها أو الموضوعات التي تحتل مركزا محوريا من اهتمامه بل إنه قد يعيد ترتيب الأحداث بما يتفق وتصوره العام لتلك الحياة وحسب الخطة التي يضعها للدراسة التي يقوم بها . وفي ذلك يقول دوجلاس كولينز إن سارتر في كتابه عن فلوير يقفز قفزات واسعة ويتنقل بسرعة من فترة زمنية لأخرى لكي يكشف عن بعض الجوانب الغامضة أو الخفية في حياته ، وكان الذي يهيم في المحل الأول هو لحظات التحول والتغير الكبرى ، أما الأحداث اليومية فانها رغم أهميتها لم تكن بالنسبة له سوى انعكاسات للاختيار الذي يفرض نفسه والذي يتمسك به المؤلف طوال الوقت (كولينز : صفحات ٢٢ - ٢٣) ، كذلك ساعدت عملية ترتيب الأحداث والقفزات الواسعة على تصحيح الكثير من المواقف والأفكار الخاطئة عن طفولة بعض مشاهير الكتاب والعلماء والمفكرين وخصوصا فيما يتصل بعلاقتهم بآبائهم كما هو الحال مثلا بالنسبة للعلاقة بين تشارلز داروين وأبيه والفكرة العامة السائدة عن شخصية الأب الطاغية المتسلط الذي كان يجب لابنه أن يصبح طبيبا مثله وأنه رغم ذلك لم يكن يتوقع أو يأمل أن ينجح ذلك الابن في الحياة نظرا لانصرافه إلى (اللهو) والجري وراء الحشرات والفراشات حتى قال له عبارته الشهيرة التي كان يستشهد بها الكثيرون للتدليل على ذلك : « انك لا تهتم بشيء سوى صيد الطيور واللعب مع الكلاب وصيد الفئران . وسوف تجلب العار على نفسك وعلى عائلتك كلها » .

كان ذلك في عام ١٨٢٥ حين كان داروين في السادسة عشرة من عمره . ولما تحقق الأب من فشل ابنه في دراسة الطب وانصرافه عنه أراد له أن يدرس اللاهوت ويصبح من رجال الكنيسة وهو الأمر الذي لم يتحقق أيضا . إلا أن رسائل داروين إلى بعض أهله وأصدقائه وكثيرا من المادة الأخرى المتعلقة بمراحل متأخرة من حياته تكشف لنا عن أن الأب لم تكن له كل هذه الشخصية المتسلطة المتحكمة ، وإنه على سبيل المثال بمجرد أن اقتنع برحلة السفينة (بيجل)

وكيف أن ميول ابنه الحقيقية يمكن أن تسهم في نجاح الرحلة لم يتردد في الموافقة على سفره رغم انهيار آماله وتصوراته الخاصة عن مستقبل ابنه . وقد كان ذلك هو بداية الطريق الذي سار فيه ذلك الابن (الفاشل) وهو الطريق الذي انتهى الى أن يصبح أحد ثلاثة غيروا اتجاه الفكر في الغرب ونظرتهم الى العالم والى الإنسان . والاثنان الآخران هما كارل ماركس وسيجموند فرويد^(١٥) .

ويتمتع الكاتب الأديب في معالجته لتراجم الحياة بدرجة من الحرية أوسع بكثير من تلك التي تتاح للمؤرخ الأكاديمي الذي يتقيد بأصول ومحكات الكتابة العملية الدقيقة . فليس من المتوقع منه مثلاً أن يبحث عن الدوافع الكامنة والبواعث الخفية والوجدانات والانفعالات التي تحرك صاحب الترجمة وتوجه أفعاله وتتحكم في سلوكه ومواقفه واتجاهاته وتحدد ملامح ومقومات شخصيته ، وهي كلها أمور تدخل في صميم الكتابة الأدبية في مجال تراجم الحياة . وتحليل هذه الجوانب يحتاج بغير شك إلى الإلمام والإحاطة بالنظريات السيكولوجية والاستعانة بها دون أن يخرج الكاتب عن هدفه حتى لا تأتي كتابته أقرب الى الدراسات السيكولوجية الأكاديمية المليئة بالمصطلحات العلمية والمناقشات النظرية . فالأمر يتطلب إذن قدرة على استيعاب تلك النظريات وتمثلها تماماً بحيث يأتي تحليل الكاتب تلقائياً ونحالياً من الافتعال ومحتفظاً طوال الوقت بعناصر الإبداع التي يجب أن تتوفر في العمل الأدبي حتى لو كان الموضوع الذي تدور حوله الدراسة أدخل في باب العلم . وكثير من (التراجم) التي ظهرت عن داروين في السنوات الأخيرة تتوفر فيها كل هذه العناصر الجمالية التي تجعل من قراءتها متعة ذهنية وذلك على الرغم من المعلومات البيولوجية والجيولوجية والمتعلقة بالحفريات وعلوم الحيوان والنبات والحشرات التي تزخر بها هذه التراجم^(١٦) .

وهكذا نجد أنه في الوقت الذي تفرص فيه (ترجمة الحياة) على عرض المعلومات الدقيقة الموثوق فيها بعد التأكد من صحتها بمختلف الطرق والوسائل فإنها تفرص في الوقت ذاته على اتباع معايير العمل الأدبي الإبداعية . ورغم كل ما يقال عن عنصر الإبداع في تراجم الحياة فإنها لا تلجأ الى افتعال أو اختراع معلومات وأحداث لا وجود لها والا دخلت بذلك الى مجال الأعمال الروائية الخيالية ؛ كما أنها لا تلجأ الى تغيير المعلومات أو تزيفها لما في ذلك من مجافاة الحقيقة والصدق ، كما أن الاكتفاء بسرد الحقائق دون الالتجاء الى عنصر (الصنعة) الأدبية فيه هو أيضاً مجافاة لمتطلبات الفن .

(١٥) انظر في ذلك التصدير والمقدمة لكتاب « مراسلات تشارلز داروين » - مرجع سبق ذكره .

(١٦) مات تشارلز داروين عام ١٨٨٢ وقد ظهرت أعداد كبيرة جداً من الكتب حول حياته وعن النظرية التطورية وكتابه الأساسي « أصل الأنواع » وموقف داروين من الدين وغير ذلك من الموضوعات بمناسبة مرور قرن على وفاته . ومن أهم هذه الكتب التي تعتبر نوعاً من « ترجمة حياة » داروين الكتب التالية التي ظهرت في السنوات العشر السابقة على الاحتفال بالذكرى المئوية لوفاته ومعظمها يجمع بين الطابع الأدبي الجمالي والدقة العلمية : -

Sir H. Atkins; "Downe : the Home of the Darwins" (1976); Peter Brent; "Charles Darwin : A Man of Enlarged Curiosity" (1981); J. Chancellor; "Charles Darwin", 1974; S.J. Gould, "Ever Since Darwin", 1977; H.E. Gruber "darwin on Man", 1974 :

ولعل من أمتع الكتابات في هذا المجال والتي تجمع بين التمتع والدقة العلمية وتعرض في الوقت ذاته حياة وأعمال داروين وبعض الروائيين الذين تأثروا بنظريته التطورية مع الاستعانة بالكتابات الأثنوبولوجية والسيكولوجية كتاب :

Gillian Beer; Darwin's Plots : Evolutionary Narrative in Darwin, George Elliot and Nineteenth-Century . Fiction, ARK, London 1985.

والتوفيق بين متطلبات الحقيقة والصدق ومتطلبات الفن هو المحك الحقيقي للحكم على هذا اللون من ألوان الكتابة التي نسميها « ترجمة الحياة » أو السيرة .



وهنا يثور سؤال مهم هو : الى أي حد يحق للكاتب أن يعرض المعلومات التي يحصل عليها ؟ وهل مبدأ الاختيار والانتقاء من كل المعلومات المتوفرة يكون محكوما فقط بمتطلبات (الصنعة) وتصور الكاتب للعمل كمشروع أدبي وفني فحسب ، أم أن هناك اعتبارات اجتماعية وأخلاقية أخرى تتدخل في ذلك ؟ وما هي حدود مسؤولية الكاتب الأخلاقية إزاء المترجم له وخصوصا حين يعرض للوقائع والأحداث المتصلة بما يمكن أن نسميه « العلاقات الخاصة الحميمة » وبالذات العلاقات ذات الطابع الجنسي والتي قد تسيء معرفتها وإذاعتها إلى اسم وذكرى صاحب الترجمة وسمعته بل قد يمتد أثرها إلى أفراد عائلته وإلى الكثيرين من الأحياء الآخرين ؟ وهل كانت امرأة مثل كوزيما فاجنر Cosima Wagner الابنة غير الشرعية للموسيقي فرانز ليشت وزوجة قائد الأوركستر هانز بولوف Hans Bulow وعشيقة فاجنر خلال فترة طويلة بحيث أنجبت منه ثلاثة أطفال وهي لا تزال « زوجة زوجها » وذلك قبل أن يتم طلاقها منه وتزوج من فاجنر ، هل كانت كوزيما على حق فيما فعلته حين أخفت ، أو أعدمت ، بعض المذكرات والرسائل التي تكشف عن خفايا هذه العلاقة وعن جانب كبير من حياة فاجنر الخاصة ، أم أن المعلومات الخاصة بحياة الشخص (العام) تصبح أيضا (عامة) وملكا للتاريخ ، وذلك على اعتبار أن الزمن كفيل بأن يجعل هذه (الحقائق) مجرد معلومات (محايدة) لا تستدعي إخضاعها لأي نوع من الاحكام التقويمية ؟ وبالمثل هل كانت إيڤا Eva فاجنر ، ابنة من كوزيما قبل أن يتزوجها ، محقة فيما فعلته حين أحرقت بعض أوراق أبيها أو ما فعلته بمذكراته أو على الأصح خواتمه التي كان قد سجلها في كراسة ذات لون بُيَّ وعرفت فيما بعد باسم (الكتاب البُيَّ) فعمدت إلى لصق بعض صفحاتها ببعض حتى يصعب قراءة ما جاء فيها ؟ أو حين رفضت تسليم أوراقه لسلطات مدينة بايرويت Bayreuth رغم ما قدمته هذه المدينة لأبيها من رعاية وعناية ورغم أنها أقامت مسرحا خصيصا لتقديم أوبراته ولا يزال حتى الآن يقام عليه احتفال فاجنر السنوي ، مما اضطر هذه السلطات الى اللجوء للقضاء من أجل الحصول على تلك الأوراق والمذكرات ؟ فلقد أدى تصرف كوزيما وايڤا فاجنر إلى ضياع كثير من مراسلات فاجنر مع بعض مشاهير عصره ، وكان ذلك خليقا بأن يحدث لرسائل نيتشة الى فاجنر لولا أن الفيلسوف كان يحتفظ بمسودات تلك الخطابات أو بعضها على الأقل ، ومنها أمكن التوصل الى معرفة حقيقة العلاقة بينهما وكيف قامت الفرقة بين الاثنين . هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى ما هي مسؤولية الكاتب أخلاقيا ليس إزاء نشر هذه المادة والوقائع والحقائق ولكن إزاء تقييمها والحكم على صاحبها ؟ وهل كان ماريك Marek مثلا محقا في الحكم على فاجنر في ضوء المعلومات التي لديه ، بالجشع والكذب والخداع والأنانية ونكران الجميل وغير ذلك من الصفات التي ألصقها به في كتابه عن « كوزيما فاجنر » الذي سبقت الإشارة إليه ؟ صحيح أن المادة نفسها تكشف عن كل ذلك وعن أن فاجنر مثلا كان يجب أن يعيش عائلة على أصدقائه بل ويستمرىء ذلك وإن كان في الوقت ذاته مسرفا إلى أبعد حدود الإسراف مما كان يدفعه إلى الاستدانة والعجز عن رد الدين والهروب من دائيه الدين كانوا يلاحقونه ويطاردونه من بلد لآخر ، كما أن المادة المتوفرة تكشف أيضا عن كيف كان يندع صديقه وأفضل قائد للأوركسترا في عهده بل أفضل من قدم موسيقاه للجمهور فيقيم تلك العلاقة مع زوجته ثم (يسرقها) منه في آخر الأمر ويتركه محطما تماما . ولكن هل تعطى هذه الحقائق للمؤلف الحق في أن يظهر لنا بيلوف على أنه الشخص الذي

يتهاون في عرضه وشرفه ويتغاضى عن وعي وإدراك عن تلك العلاقة القائمة بين زوجته وصديقه ويضحى بكرامته في سبيل تقديم أعمال فاجز، بل يسمح لإحدى المجلات أن تفصح عن هذه العلاقة في رسم كاريكاتيري شهير يظهر فيه فاجز متأبطاً ذراع الزوجة ويسيران معا في كبرياء وخيلاء بعد نجاح (بروفة) إحدى أوبراته بينما يسير بيلوف نفسه - وهو الذي تولى قيادة الموسيقى في أثناء اجراء البروفة - خلفها غارقا وضائعا بين (نوتات) موسيقا فاجز؟ صحيح أن جورج ماريك لم يقف في هذا كله موقفا معاديا من فاجز أو من بيلوف (وان كان هذا لا يصدق تماما على موقفه من كوزيما نفسها التي يراها أستاذة في الخداع ورسم المؤامرات رغم إعجابه بذكائها)، بل إنه أقرب إلى التعاطف معها وإلى فهم النزاع والانفعالات والمشاعر المضطربة في نفوسهما لدرجة أنه كان يحاول تبرير سلوك بيلوف أحيانا بأنه نوع من التسامي والارتفاع على الذات والتضحية بالنفس في سبيل تعريف العالم بالأعمال الموسيقية الخالدة لموسيقى عبقرى فذ، ويدلل على ذلك بأنه حين فاض الأمر بالزوج بعد تكاثر الأحاديث حول زوجته وصديقه عزم على أن يطلب فاجز إلى المباراة ولكن أحد المعجبين بفاجز قال له: «إن من العار أن تطلق المسدس على الأستاذ» فراجع بيلوف عن عزمه. كذلك إلى أي حد يحق للكاتب أن يستخدم المعلومات التي وصلت إليه عن طريق صلته الخاصة أو الشخصية بالشخص الذي يترجم له أو التي اطلع عليها بحكم عمله ولم يصل إليها نتيجة البحث والدراسة، وهي في الأغلب معلومات لم يكن يتسنى له أن يحصل عليها أو يعرفها لولا هذه الصلة، وذلك كما هو الحال بالنسبة للورد موران Lord Charles Moran الطبيب الخاص لتشرشل الذي أفاد من المعلومات التي وفرتها له هذه الصلة الخاصة بالسياسي البريطاني، هل يعتبر ذلك خروجاً على أصول وقواعد (المهنة) وعلى القيم الاجتماعية والأخلاقية؟ وهل يخضع العمل الأدبي والإبداع الفني لمثل هذه القيم؟ إن هذه المشكلة يواجهها الآن علماء الأنثروبولوجيا الذين يتصلون بالجماعات التي يدرسونها اتصالاً مباشراً فيعيشون بينها فترات طويلة من الزمن قد تطول إلى أكثر من عام يعرفون في أثناءه الكثير جداً من حقائق الحياة الخاصة بين الناس ويستخدمون هذه المعلومات لتركيبة نمط اجتماعي وثقافي عام عن المجتمع الذي درسه. وقد تعرض الأنثروبولوجيون في السنوات الأخيرة لكثير من الهجوم عليهم لاستخدام هذه المعلومات (الخاصة) ولكن الأمر لم يُحسم بالنسبة للكتابات الأنثروبولوجية، كما أنه لم يُحسم بالنسبة لتراجم الحياة، ولكنه يشير مشكلة التعارض بين مبادئ الأمانة العلمية والاعتبارات الأخلاقية، وإلى أي حد ينبغي على الباحث أن يلتزم بالصدق وإبراز الحقائق دون نظر إلى ما قد يترتب على ذلك من نتائج وآثار، وهل هذا يصدق على الإبداع الأدبي والفني مثلما يصدق على البحث العلمي؟ قد تكون هناك وسيلة للتوفيق بين الناحيتين وذلك عن طريق تجنب الإثارة أو العمل عمداً على ما قد يؤدي السمعة ويصدم المشاعر. وليس من شك في أنه يمكن التعبير عن أقسى الحقائق وأكثرها مجافاة للتقاليد والآداب العامة بأسلوب محكم رصين بحيث يتقبل المرء هذه الحقائق والوقائع في كثير من الرضا والافتناع.

ويتصل ذلك بمشكلة أخرى هي في الحقيقة امتداد لما سبق أن ذكرناه، ونعني بذلك مشكلة تفسير المعلومات وتأويلها. فليس المفروض في ترجمة الحياة أن تكون مجرد سرد ووصف وتسجيل لحقائق الحياة والأحداث والوقائع التي عاشها الشخص المترجم له دون أي محاولة للتحليل والتفسير، كما أن عرض الحقائق ذاتها إنما يأتي معبراً عن وجهة نظر الكاتب ورؤيته للأمر في ضوء قراءته لتلك المعلومات والحقائق، ومن هنا كان ذلك الاختلاف الذي نجده بين مختلف الكتاب الذين (يترجمون) حياة شخص واحد. وقد يفيد هنا أن نضرب مثالا عن اختلاف وجهات النظر بالنسبة

إحدى شهيرات الروائيات في إنجلترا في القرن التاسع عشر ، ونعني بها جين أوستن Jane Austen، بوجه خاص أن أعمالها الروائية ، أو بعضها على الأقل ، معروفة في العالم العربي مثل رواية الكبرياء والهوى Pride and Prejudice والشائع عن جين أوستن أنها من أكثر الكتاب العظام قريبا إلى أفهام القراء ومشاعرهم وأقدرهم على إثارة المتعة على ما يقول بريان ساثام Brian Southam^(١٧) . ومن الطريف أن نجد أن اسم جين أوستن تردد كثيرا في مراسلات داروين وإخوته مما يدل على إعجابها بها وتعلقه بكتابتها ، فهو يقول مثلا لكارولين داروين في رسالة بتاريخ ٢٦/٢٥ ابريل ١٨٣٢ وقد أرسلها لها من فوق السفينة (بيجل) : « إن القبطان يقول إن روايات الأناثة أوستن موجودة فوق مناخذ جميع « أفراد فريق البحث » ، كما أنه كثيرا ما كان يستشهد بعبارة التي يبدو أنه كان يحفظها عن ظهر قلب . بل إن اسمها يظهر في « ترجمته الذاتية » في الوقت الذي لم يشر إلى حبيبته الأولى (إما أوين) على الإطلاق رغم أنه ظل متعلقا بها طوال حياته وان لم يتصل بها إلا لماما .

المهم هو أن معظم الذين كتبوا عن أوستن أو ترجموا لحياتها يتفقون على ملامح معينة لشخصيتها استمدوها من « وثائق العائلة » حسب قول هرميون لي Hermione Lee . وتشير الوثائق إلى أنها كانت شخصية لطيفة مرحة ومحبة للخير وغير متمزقة ومحبوبة من الجميع رغم نحفظها أو (برودها) وأنها كانت تعطي جانبا كبيرا من اهتمامها وعنايتها لتبين وضع المرأة القاسي ومواهبها وقدرتها ومصيرها والقيود المفروضة على حريتها ؛ كما كان هؤلاء الكتاب يحرصون على الكشف عن أن ثمة نوعا من الصلة القوية بين حياتها الخاصة وإنتاجها الأدبي الذي يعكس إلى حد كبير تجربتها الشخصية في الحياة ويعبر عن رؤيتها وملاحظتها . ومع أننا لا نكاد نعرف شيئا مؤكدا عن حياتها العاطفية فإن ثمة بعض القصص المتضاربة عن بعض العلاقات ، وإن إحدى هذه العلاقات كانت من العمق بحيث تركت أثرا باقيا في نفسها بعد مرض حبيبها وموته الفجائي مما جعلها تعيش بقية حياتها بغير زواج إخلاصا منها لذكره ، ووجهت كل عواطفها وأحاسيسها نحو أولاد اخوتها كما كرست حياتها للكتابة ، وأفلحت بذلك في أن تحافظ على خصوصياتها وأن تعكس ذلك كله في رواياتها التي تدور في معظمها حول تجارب فتيات في مقتبل العمر على طريق الزواج مثلها ؛ وإن كانت كل رواية منها لها طابعها المميز وتكشف عن جانب مما تعرض له المرأة الشابة من خداع وخذلان حين تستسلم للأحلام فاذا بها تصطدم بأكاذيب الكبرياء والهوى .

وهذه كلها أمور معروفة وشائعة لدى الكتاب الذين تعرضوا لحيات جين أوستن ، وهو الانطباع الذي يخرج به القارئ من رواياتها . ولكن تظهر أخيرا (ترجمة) جديدة عن (حياة جين أوستن)^(١٨) يقول عنها الناشر انه يأمل أن تكون هي الدراسة النقدية الحاسمة لهذا الموضوع بالنسبة لهذا الجيل على الأقل . ولكن الظاهر أن الكثير من النقاد لا

^(١٧) Brian Southam; "Jane Austen : British Novelist"; in Justin Wintle (ed); *Makers of Nineteenth Century Culture; A Biographical Dictionary*, R.K.P., London 1982, pp. 17-18.

ويمكن للقارئ أن يجد كثيرا من المعلومات الطريفة عن حياة جين أوستن وعن (بطولات) رواياتها في كتاب قصير ولكنه يمنع ظهور في العام الماضي وهو :-

John Hardy; *Jane Austen's Heroines : Intimacy in Human Relationships*, R.K.P. London 1984.

John Halperin, *The Life of Jane Austen*, Harvester, Brighton 1985

(١٨)

يتفقون مع الناشر في ذلك الادعاء ويرون أن المؤلف (جون هالبرين John Halperin) يحاول متعمدا في دراسته سحق وتحطيم الموقف الإنجليزي التقليدي الذي ينظر إليها بإعجاب وإعزاز وتعاطف معها بل إن هناك من هؤلاء النقاد من يرى أن هالبرين ينتمي إلى تلك الفئة من الكتاب الذين يصعدون في تراجع الحياة التي يؤلفونها عن الكراهية والنفور من الأشخاص الذين يكتبون عنهم ، ولذا فإنه يرى أن رواياتها عبارة عن تجسيد لما تعانیه من كبت واستياء (عصابي) ومرارة وشك وسخرية ناجمة عن فشلها في حياتها العاطفية وفي علاقاتها مع الآخرين . فقد أدى سوء طباعها وشعورها بالعداء نحو إختوتها وسوء علاقاتها بأبها وبرودها في التعامل مع الآخرين إلى انصراف الناس عنها وإلى بقائها بدون زواج بقية حياتها مما ملأ نفسها باليأس والاحباط فضلا عن الأسى والأفكار السوداء التي كانت تغزو عقلها نتيجة لانصراف الرجال عنها ، وهذا هو ما جعلها عاجزة تماما عن أن تكتب في أي موضوع غير الرغبة العاجزة عن تحقيق الحب والحياة والمكانة الزوجية^(١٩) .

ولن ندخل في تفاصيل الأسباب التي جعلت هالبرين يذهب إلى هذا الرأي وإلى تلك النتائج المخالفة لما هو سائد عن جين أوستن . وكل ما يهمنا هنا هو أن الموقف الذاتي والزواية التي ينظر منها المؤلف إلى الشخصية التي يدرسها تؤدي إلى نتيجة تتعارض وتتناقض تماما مع النتائج التي يصل إليها كاتب آخر عن نفس الشخص حين ينظر إليه وإلى حياته وعلاقاته وإنجازاته من موقف آخر وزواية أخرى ، ومن الإنصاف أن نقول أن ذلك ليس وقفا على المعالجات الأدبية لتراجم الحياة أو السير ، بل أننا كثيرا ما نجد مثل هذه النتائج والآراء المتباينة حتى في الدراسات الأكاديمية التاريخية والاجتماعية والأنثروبولوجية ، فالأمر يتوقف إلى حد كبير على نقطة الانطلاق وعلى الموقف الشخصي . ففي الأنثروبولوجيا التي تعتمد على الاتصال المباشر بمجتمع الدراسة وجمع المعلومات عن طريق الملاحظة والمعاشة والمشاركة في كثير من أوجه النشاط التي يمارسها الأهالي ، قد تأتي صورة المجتمع الواحد مختلفة تماما باختلاف الباحثين . والمثال الذي أحب أن أرجع إليه دائما في هذا الصدد هو دراسة اثنين من كبار علماء الأنثروبولوجيا الأمريكيين لمجتمع تبولزلان في المكسيك، فقد ظهر المجتمع في إحدى الدراستين مجتمعا متكاملًا متماسكا بينما ظهر في الدراسة الأخرى يعاني من أسوأ مظاهر التفكك ذلك أن أحد الباحثين كان يهتم بالبحث عن مظاهر التعاون في المجتمع ، بينما كان الباحث الأخرى يبحث عن أشكال ومظاهر التنافس . ومع أن هذا يخرج عن نطاق هذه الدراسة إلا أنه يوضح كيف أن الموقف الذي يقفه الباحث أو الدارس منذ البداية يصبح دراسته كلها ويؤدي إلى نتائج معينة قد تختلف تماما عما يصل إليه باحث آخر بدأ من نقطة انطلاق أخرى ويحاول التدليل عليها . وهذا جانب ذاتي قد يتعارض مع الموضوعية التي يفترض أنها توجه البحوث والدراسات . ولكن هذا الجانب الذاتي هو الذي يعطي (ترجمة الحياة) نبض الحياة .



ولقد كنا حريصين على أن نشير في الصفحات السابقة إلى بعض الدراسات (البيوجرافية) التي تناولت حياة وأعمال وإنجازات اثنين بالذات من كبار رجال القرن التاسع عشر يمثلان نمطين مختلفين من (الشخصية) والسلوك والاتجاهات والموقف من الحياة والقيم والإعداد النفسي والاجتماعي ومجال (التخصص) والنشاط والعمل .

(١٩) انظر عرض هرميون لي لكتاب هالبرين :

Hermion Lee; "Turning Nasty"; T.L.S., 2 August 1985, p. 859.

والفوارق التي تقوم بينها هي الفوارق بين الفنان الذي يمثله هنا ريتشارد فاغنر أصدق تمثيل وربما بشيء غير قليل من المبالغة ، والعالم الذي يمثله تشارلز داروين أصدق تمثيل أيضا فمن ناحية نجد الفنان المحب للظهور (الاستعراض) والذي يشعر بأهميته وسطوته على الآخرين بحيث تمتد هذه السطوة إلى ملك بافاريا الذي أعجب بموسيقاه وقدم له كل ما يستطيع للملك أن يقدم من عطاء ، والذي كان يتمتع إلى جانب ذلك بقدر كبير من الأنانية والجشع ويرى نفسه هو مركز الكون وأن من حقه أن يحصل على ما يشاء في نظير ما يقدمه من إبداع فني أو حتى لكي يستطيع أن ينتج ويعطي بيننا نجد من الناحية الأخرى العالم الباحث الخجول المتواضع الذي يأبى على نفسه الظهور في المحافل ويفضل حياة الريف والعزلة على حياة لندن الصاخبة ومجتمعها المفتوح، بل انه كان يتجنب حتى مجتمع العلماء أنفسهم . ولكن على الرغم من هذه الاختلافات والفوارق بين الاثنين فإن دراسات التي تناولت حياة كل منهما تكشف عن نواحي الاتفاق : ليس الاتفاق في المادة وإنما الاتفاق في المنهج وأسلوب البحث . وهذه في الحقيقة هي النقطة التي كنا نهدف إليها طوال الوقت ، أعني المنهج المتبع في دراسة تراجم الحياة وهل هو يختلف باختلاف الأشخاص الذين يراد كتابة « تراجم » حياتهم ؟ ثم هل هو يختلف عن المنهج الذي يتبعه المتخصصون في الدراسات الإنسانية كالتاريخ وبالذات علم الاجتماع والأنثروبولوجيا ، وخصوصا أن أحد أساليب البحث في الأنثروبولوجيا يعرف باسم « تاريخ الحياة Life History وهو أسلوب أو طريقة تعتمد على جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن حياة شخص واحد - أو ربما عدد من الأشخاص - الذين يحتلون مكانة عالية ويقومون بأدوار هامة في حياة المجتمع الذي ينتمون إليه ؟ وليس الهدف من « تاريخ الحياة » هو دراسة حياة هذا الشخص المعين لذاته بل دراسة تاريخ حياته من أجل الوصول إلى بعض الأحكام العامة التي تصدق على المجتمع بأسره أو على قطاع معين من قطاعاته خصوصا فيما يتعلق بالقيم السائدة في ذلك المجتمع والتي توجه سلوك هؤلاء الأفراد وتحدد نظرهم إلى الحياة . ويتطلب هذا الأسلوب في البحث مهارات خاصة تتعدى القدرات التي يحتاجها البحث الأنثروبولوجي أو السوسولوجي المعتاد ، لأنه لا بد من أن تتوفر لدى الباحث القدرة على خلق علاقات قوية مع الأفراد الذين يريد دراستهم حتى يمكنه أن يخوض معهم في دقائق تفاصيل حياتهم ويرجع بهم إلى الماضي الذي عاشوه وهم صغار ليتعرف المؤثرات الاجتماعية والبيئية والثقافية التي كانت سائدة حينذاك وطريقة تأثيرها على حياتهم . والمعلومات التي يجمعها الباحث الأنثروبولوجي بهذه الطريقة تصبح بمثابة (الوثائق) التاريخية الحية ، التي يعتمد عليها في معرفة التطورات التي طرأت على النظم الاجتماعية والثقافية التي تساعد على فهم الخطوات والمراحل التي مرت بها هذه النظم حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن . (٢٠)

وقد يختلف الأشخاص الذين تدور حولهم هذه الدراسات وتباين أوضاعهم الاجتماعية والثقافية ويشانهم ومقومات شخصيتهم وتجاربهم وخبراتهم في الحياة تباينا شديدا ، كذلك قد يختلف الكتاب الذين يقومون بهذه الدراسات ويتفاوتون فيما بينهم تفاوتاً شديداً من حيث التخصص والإعداد العلمي، ولكن يبقى بعد ذلك شيء ثابت في هذا كله وهو موقف العقل من البحث عن الحقيقة والمبادئ التي تحكم عملية البحث والتي يلتزم بها الباحثون ويحاولون تطبيقها بكل دقة . ويتمثل ذلك بشكل خاص في الجهود الطويلة المضنية التي يبذلونها في جمع المعلومات وتتبع مصادرها

John Madge; The Tools of Social Science, Longman's London 1953, pp. 80-1; N.K. Denzin, (٢٠) The Research Act; Aldine, Chicago 1970, pp. 220-3.

والتحقق من صحتها وصدقها عن طريق مقابلتها بعضها ببعض ، سواء أكانت مصادر هذه المعلومات هي نفس الأشخاص الذين تدور حولهم هذه الدراسات (في حالة الترجمة لهم في أثناء حياتهم) أم بعض الأحياء من الناس الذين كانوا على اتصال بهم في أثناء حياتهم ولديهم عنهم ذكريات قد تلقي أضواء على بعض جوانب شخصيتهم ؛ أم كانت هذه المصادر هي الوثائق والمستندات والسجلات والمذكرات المكتوبة والمراسلات التي تركها هؤلاء جميعا والتي تشتمل على بعض المعلومات حتى لو كانت ضئيلة . ففي هذا الجانب من (البحث) أو (الدراسة) تتفق كل أنواع تراجم الحياة حتى وإن تفاوتت فيما بينها في المستوى والقدرة على إبراز ملامح ومقومات شخصية صاحب الترجمة أو عرض آرائه وأفكاره ، والتعبير عن هذا كله بدرجات متفاوتة من الوضوح والإحاطة والتشويق . وهذا جانب (علمي) أو حتى أكاديمي يعتبر أساسا قويا وضروريا لتناول حياة الأشخاص بالدراسة سواء كانت هذه الدراسة « ترجمة » أدبية لحياة هذا الشخص أو تحقيقا تاريخيا أو بحثا أنثروبولوجيا ، وهو يبين في آخر الأمر مدى المعاناة الحقيقية التي يلقاها كل من يتعرض للقيام بمثل هذه الدراسة سواء كان أديبا أو مؤرخا أو متخصصا في أي من العلوم الانسانية والاجتماعية الأخرى .



ويضم هذا العدد مجموعة من الدراسات التي تدور في مجملها حول بعض « الشخصيات » و « الآراء » الهامة التي تتضمنها بعض الكتابات والكتب التي ترى المجلة ضرورة التعريف بها من هذه الزاوية المحددة مع الاهتمام بوجه خاص بالنواحي المنهجية كلما تيسر ذلك . فالأساس هنا إذن هو مجموعة مختارة من الكتب القديمة أو الحديثة التي تعبر بشكل أو بآخر عن حياة أصحابها أو أفكارهم أو آرائهم في المجتمع الذي يعيشون فيه أو الثقافة التي ينتمون إليها حتى وإن لم تكن هذه الكتب في الأصل (تراجم حياة) بالمعنى الدقيق للكلمة . وذلك بقصد اكتشاف (المنهج) الذي يكمن وراء كل هذه الأعمال المختلفة . وذلك لا يقلل بأي حال من أهمية المعلومات التي تضمها هذه الكتابات التي يعتبر بعضها من الأعمال التراثية الباقية في تاريخ الفكر العربي .

د . أحمد أبو زيد





كوزيما فاجتر



فاجز وكوزيما



A Munich caricature of Wagner, Cosima and Bülow, inscribed "After a Tristan rehearsal. Drawn from nature, 1864."

« بعد بروفة أوبرا تريستان رسم من الطبيعة ١٨٦٤ ، ظهر هذا
الرسم الكاريكاتيري تحت هذا العنوان أثناء الحملة الصحفية ضد
فاجنر ، ويظهر في الرسم فاجنر متأبطاً ذراع كوزيما بينما يسير خلفها
هانز بيلوف (الزوج وقائد الأوركسترا)



سفينة الأبحاث (بيجبل) أثناء عبورها مضيق ماجلان



اخوة أم أبناء عمومة



كوزيما فلجنر
رسم كاريكاتيري بريشة براندت (١٩٠٥)



(حركات داروين، والنباتات المتسلقة)
رسم كاريكاتيري بريشة سامبورن ١٨٧٥



أحد الرسوم الكاريكاتيرية (عام ١٨٧٤)
 التي أسهم بها فنانون الكاريكاتير في بريطانيا أثناء الجدل الذي دار
 حول كتاب أصل الأنواع



حجرة المطالعة في بيت داروين ولانزال موجودة بحالتها للآن